

الفصل الثالث

جوانب الشريف الرضى

١ - الشاعر العربي المجود

تظهر روح البداوة العربية عند الشريف الرضى فى مواضع غير قليلة من شعره . وهو وإن كان حضرى المولد والنشأة والمقام ، إلا أنه يحن إلى البداوة ؛ ولعله حنين إلى العروبة التى يجعل البداوة قلبها ومثالها . وقد كان تغنيه بالعروبة ردًّا فعل للحركات غير العربية التى تجلت فى تقسيمات الدولة العباسية . فإذا أتاحت الظروف للترك والديلم ومن إليهم من الأجانب أن يظهرُوا ، فلا أقلَّ من أن يكون العرب مسموعى الصوت فى وسط هذا الضجيج الهائل من الأعاجم المتحكمين فى الخلافة .

وينتهز الشريف الرضى كل مناسبة لإبراز الكيان العربى ممثلاً فى قديم أجداده . فإذا خلع بهاء الدولة البويهى على والد الشريف لقباً جديداً ، فإن الشريف يهنى أباه ، ويعود بالفخر والشرف إلى قحطان وعدنان أصلى العرب ، فيقول :

فخرت قحطان أن كان لها	ذو نواس وكلاع ورعين
شرف الأذواء فيها قبلنا	كل رجب الباع هطال اليبدين
ثم ساوتها فخاراً مضر	بعلاء الطاهر ذى المنقبتين
شيمتا عز ومجد أغنتا	عن أبى أحمد فينا والحسين

ويسمى نفسه وهو فى معارض صباه « بالفقى العربى » ، فيقول :

إنى لأكرم نفسى أن يقال : جنى على الفقى العربى الخرد العرب!

ويرث أمه الشريفة فاطمة بنت الناصر العلوية فيفتخر بآبائها (النازلين
 بعرة السنام من العلا) :

من كل مستبق اليدين إلى الندى ومسدد الأقوال والآراء
 يُرجى على النظر الحديد تكرماً ويُهَاب في الإطراء والإغضاء
 دَرَجوا على أثر القرون وخلفوا طرقات معبدة من العلياء
 ويتمثل العربى أمامه دائماً ماضياً مثل سيفه ، وإلا فإن آباءه ينكرونه ،
 فيقول :

إذا عربى لم يكن مثل سيفه مضاء على الأعداء أنكره الجد
 ويخرج إلى مكة في قافلة ، فينظم قصيدة وهو بطريق نجد ، فيذكر
 الحِلَّة ، والقبيلة ، واستباح الكلاب للقرى ، ورفاقه من البدو ، فيقول :
 فمن حلة نجتأها وقبيلة نمرُّ بها مستنبحين كلابها
 ومن رفقة نجدية بدوية تقارضنا أشجانها واكتشأها
 وقد أدرك الشريف بحق ما فى شعره من قيم عربية أصيلة : وعرف ما فيه
 من جهود بلها لاختيار كرائم الألفاظ لكرائم المعانى ، وكان مدركاً تمام الإدراك
 لما بين ألفاظه ومعانيه من موامة وتساوق . فراه يشير إلى هذا فى قصائده فى
 المناسبات المختلفة ، فيقول لأحد ممدوحيه من الوزراء واصفاً قصائده العُرى التى
 لا يهوى نظامها :

وعندى لك العُرى التى لا نظامها يهى أبداً ، ولا يبوخ شهابها
 وعندى للأعداء فيك أوأبدُ لُعاب الأفاعى القاتلات لعابها
 ويقول فى وصف إحدى قصائده فى خلال مدحه لأبيه :

قدما ، فغرَّتْها من الكلم الجنى وحجولها من صنعة ومعانى

هى نطفة رُفِرتُها من خاطرى بيضاء تنقع غلة الظمان
ويقول واصفاً نظام قصائده :

وهأنذا أبثك كل بيت رقيق النسج رقراق النظام
ويصف لنا معاناته حتى يوائم بين ألفاظه ومعانيه ، وهو يعاتب الخليفة
الطائع . فيقول :

فأذهب كما ذهب الغمام رجوته فطوى البروق وضن بالتهتان
أو بعد أن أدمى مديحك خاطرى بصقال لفظه أو طلاب معاني
وهذه المواعمة لم تفته وهو يلائم بين موضوع الشعر وعبارته ، حتى يكون
الكلام مطابقاً لمقتضى الحال . وهذه هى البلاغة فى الأداء . فقد أغرب
بالألفاظ الغريبة غير المألوفة فى استعمال عصره ، حين رثى أستاذه اللغوى الهاشمى
المنصورى . لأنه راعى هذه الناحية فى المرقى .

أما موسيقى الشعر فلم تفت الشريف الرضى حين كان ينظم . وقد كانت له
أذن موسيقية تحس الاختلال فى سلاك الشعر فتعاشاه . ودليلنا على ذلك
ما نجده فى شعره كله من تناغم موسيقى جميل . على أن الحادثة الآتية تزيد هذا
توكيداً . فقد مدحه أبو إسحاق الصابى بقصيدة نونية من الوزن المقيد الساكن ،
مطلعها :

أبا كل شئ قليل فى وصفه حسن إلى ذاك ينحو من كنانك أبا الحسن
فأجابه عنها بقصيدة على رويتها دون وزنها (لأن ذلك الوزن المقيد لا يبيىء
فى الكلام إلا مقلعاً ، ولا النظم إلا مختلاً^(١)) . ومطلع قصيدة الشريف :

دع من دموعك بعد البين للدمن غدا لدارهم ، واليوم للظن
فقصيدة الصابى من البحر الطويل ، ورد الشريف عليها من البحر
البسيط .

ولنستمع إلى رأى بعض القدماء فى شعر الرضى وشاعريته . فالشعالي يقول عنه فى اليتيمة : (ثم هو أشعر الطالبين ، من مضى منهم ومن غير ، على كثرة شعرائهم المفلقين ، كالحماني ، وابن طباطبا ، وابن الناصر وغيرهم . ولو قلتُ إنه أشعر قریش لم أبعد عن الصدق) . وابن خلكان يعيد ما ذكره الشعالي فى اليتيمة . والخطيب البغدادي يروى قول أبى عبد الله محمد الكاتب بحضرة ابن محفوط : (سمعت جماعة من أهل العلم بالأدب يقولون : إن الرضى أشعر قریش . فقال ابن محفوط : هذا صحيح ! وقد كان فى قریش من يجيد القول إلا أن شعره قليل ، فأما مجيد مكث فليس إلا الرضى) .

٢ - قلائد المديح

للمديح نصيب كبير فى ديوان الشريف الرضى ، فهو شئ يلتفت النظر فى شعره . وبحق لك أن تقول :

ما كان أغنى شاعراً كبيراً ذا جاه ومجد من أهل البيت عن أن يُورد نفسه هذا المورد . ولو أنصف الزمان ، واستقام الدهر لكان الشريف الرضى أحقَّ أن يمدحه المادحون ، لا أن يطيل هو نَقَسَهُ فى مدح من لا يستحقون المدح . . .

على أن من ممدوحيه من ارتفعوا إلى مقام الأحقية بالمديح ، فهو يُبرز بمدحه إليهم القيم الرفيعة التى تستحق من الشعر التفاتة خاصة . وهذا هو المدح الصادق ، الذى لا يرجى منه ثواب ، ولا يُخشى من تركه عقاب . . . ويعترف لنا الرضى نفسه بأنه كان « يهذب خواطره فى مدح اللثام » ، فتجىء المعانى صادقة فى حسنها ، ويحىء المدح نفسه كاذباً . . . ويقول فى ذلك :

أهذب فى مدح اللثام خواطرى فأصدّق فى حسن المعانى ، وأكاذب^(١)

وهذا هو المدح المقتعل المصطنع الذى لم توح به محمدا ولا منقبة ، ولكن أوحى به مناسبات واعتبارات خاصة .

ولا نُزِهرُ الشَّريف الرضى من بعض هذه الأمداح . صحيح أنه رباً بنفسه عن أن يتكسب بشعره ، فقد كان كما قررنا من قبل أبيعاً أنوفاً لا يقبل شيئاً من أحد ؛ ولكنه كان يجعل مدائحه سلماً إلى المسألة عند أصحاب السلطان ، ودريئة من أذاهم . وما كان مثل الشَّريف الرضى ليعزَّ على الأذى من الأتراك أو البويهيين ؛ فقد رأينا أباه يلتقى به سجيناً فى إحدى قلاع فارس على يد عضد الدولة بن بويه . ولو أراد واحد من بنى بويه مثلاً إيصال الأذى إلى الرضى لما عز ذلك عليه . ولكن شاعرنا كان كيساً ، ليقاً ، عفا اللسان ، حلو الحمايلة . ولعله اتخذ مدائحه للحكام والخلفاء سبباً إلى أمان جانبه . . .

ولماذا كان الشَّريف الرضى يتحرق شوقاً إلى لقاء الخليفة الطائع ؟ أما كان يكفيه أن يشكره بقصيدة على موقفه الكريم من والده بعد إطلاقه من السجن ؟ فلماذا يمدحه بمثل هذا :

مولاي ! من لى أن أراك وكيف لى
بحضور دارك والعدو بم عزل
انظر إلى ببعض طرفك نظرة
يسمو بها نظرى ويُعرب مقولى
ولماذا يقول له بعد هذا من قصيدة :

غرضى بمدحك أن يطاوعنى عوجُ
بأياى ويعتدل
ولماذا يتقف منه موقف المتنبي من كافور ، فيقول :

أعيد مجدك أن أبقى على طمع
وأن تكون عطايى المواعيد !

ولماذا يقبلُ من الخليفة الطائع صلوات من ثياب وورق ثم يمدحه ويشكره عليها ، مع أنه قال لشيخه الطبرى إنه لا يقبل من أحد شيئاً ، وإنه لم يقبل من أبيه قط شيئاً ؟ ثم لماذا يقول للطائع على مذهب شعراء التكسب :

نظرة منك تُرسل الماء فى عو
دى وتمطى ظلى ، وتنبت تربى

ما تَرَجَّيتَ غيرَ جودكِ جوداً أَيْرُجَّى القطار من غير سُحبٍ ؟
 إن في مثل هذا المديح شبهة التكبس ! فهل كان الرضى مُحَاكِماً للتقدماء
 في هذا الميدان ؟

ويخيل إلى أن الرضى كان بارِعاً في اللعب على الخلفاء بالملوك ، وعلى
 الملوك بالخلفاء . . . فهو يقول للخليفة الطائع :

فإذا ما أَرَادَ قُربى مَلِكُ قَلْتُ : قُربى من الخليفة حَسْبى !!
 ولا شك أن مدح الرضى للقادر بعد نكبة الطائع وعزاه لم يكن له محل ،
 وأنه كان لهدف مصلحيّ سياسيٍّ كما سلف القول في الفصل الخاص بالخلفاء
 والأمراء .

لقد مدح الرضى من الخلفاء الطائع والقادر ، ومدح من بنى بويه شَرَفَ
 الدولة وبهاء الدولة — بل عَمَّمَ بالمدح البويهيين جميعاً ، فقال :

أآل بويه ما نرى الناس غيركم ولا نشتكى للخلق لولاكم فَقَدْما
 ومدح من الوزراء ابن صالح : والموفق وزير بهاء الدولة ، وابن حمد ،
 وابن خلف وغيرهم . ولكن أصدق مدائحه ما لم تكن فيه رائحة المصلحة والمكسب
 السياسي ، بل فيه صدق العاطفة ، وحقيقة الشعور ، كمدائحه لوالده النقيب ،
 ولخاله أبي الحسين ، ومدائحه لأهل البيت عليهم السلام ، ومدحه لصديقيه
 الحميمين : الصابى ، وأبى الحسن البنى . . .

ومع عفة لسان الشريف الرضى وبعده عن العوراء لم يَبْشُرْ ديوانه من بعض
 الأهاجى الشديدة الموجعة ، كقوله في آل محرق :

ولاحت لنا أبيات آل محرق بها اللؤم ثاو لا يروح ولا يغدو
 خيام قصيرات العماد ... كأنها كلابٌ على الأذنان مقعية رُبْد
 وكقوله في هجاء قوم :

مواقد نيرانهم قسرةً وسربالٌ طاهيهم أبيض^(١)
إذا حركوا للمساعي أبوا وإن أنزلوا دار ضميم رضوا
وكفوله في وصف مغن دميم :

تقذى بمنظرة العيون إذا بدا وتقى عند غنائه الأسماع
أبذاك نستشنى ومن نغماته تتولد الآلام والأوجاع ؟ !
ولكنه هجاء غير بلدى ولا مفتش ولا مقلد ، وإنما هو لون طريف من
تصوير الناس حين تغضب عليهم فنقول أسوأ ما فيهم . . .

٣ - أسباب الفخار

للفخر دواع كثيرة ، فقد يفتخر المرء بآبائه ، وهو طريق قديم سلكه شعراء
الفخر في الأدب العربي ، وقد يفتخر بشجاعته أو جوده أو مضاء عزمه أو
مجموعة من جماع الفضائل فيه . وقد نرى بعض الشعراء يفتخرون بشعرهم وقوته
وقيمته وحسن ديباجته ، كما فعل أبو تمام مراراً في مثل قوله :

كما علم المستشعرون بأنهم بطاء عن الشعر الذى أنا قارض
وقواه :

بقواف هى البسوافى على الدهر — ولكن أثمانهن مواض
وقواه :

لا ذنب لى غير ما سيرت من غرر شرقاً وغرباً وما أحكمت من عقد
أو كما فعل ابن الرومى في مثل قوله :

شعرى شعر إذا تأمله إلاز سان ذو الفهم والحجا عبده

(١) هذا كناية عن البخل والفقر معا ، فلا يكون الطاهى أبيض الثوب إلا إذا لم يكن هناك
نار ولا طبخ .

أو كما فعل المتنبي في مثل قوله :

خليلي إني لا أرى غير شاعر فلم منهم الدعوى ومنى القصائد ؟
أو قوله :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
ولقد رأينا الشاعر الرضي يبالغ في افتخاره وزهوه بشعره إلى حد لم نألفه عند
شاعر غيره ، فهو وإن كان يقول في إحدى قصائده :

وما الشعر فخرى ولكنما أطول به همة الفاخر
إلا أنه يعود فينسى ذلك القول ، ويجعل الشعر فخره ، بل يجعل نفسه أشعر
الأمم في مثل قوله :

كفأك بأن عرضك من طروق العار في ذمي
وذلك عصمة مني بحبل غير منجذم
وحسبك أن يقل شباة هجوك أشعر الأمم !
وحين يضع نفسه في موازين الموازنة بين شعراء العرب ، يرى نفسه تارة
زهير بن أبي سلمى :

أنا زهير فمن لي في زمانك ذا ببعض ما افتقرت « عنه يدا هرم »
وتارة يرى أنه بزّ بشعره زهيراً ، فيقول :

بز زهيراً شعري ، وهأنذا لم أرض في المجد أنه « هرم » !
وتارة يعلن أنه لولا الحياء لحجّن بشعره شعر البحري ومسلم بن الوليد ،
فيقول :

شعر أثير به العجاج بسالة كالطعن يدي والقنا تتحطم
وفصاحة لولا الحياء لهجنت أعلام ما قال الوليد ومسلم !

وتارة يقيس نفسه إلى البحترى وأبى نواس ، فيقول عن شعره :

وصلت جواهر الألفاظ فيه بأعراض المقاصد والمعاني
فجاءت غضة الأطراف بكرا تخير جيدها نظم الجمان
كأن أبا عبادة شق فاها وقبّل ثغرها الحسن بن هانى

وهكذا تقع فى ديوان الرضى على كثير من الفخر والافتتان بشعره ، والزهو به ، والاستعلاء به على كبار الشعراء ، والمبالغة فى تقديره إلى حد يراه أنه يرفع مراتب الممدوحين ، كقوله :

أبا قاسم ! جاءت إليك قلائد تقلد أعناق الرجال المناقبا
ولقد بالغ الشريف الرضى فى هذه الناحية من الفخر ، إلى حد أن أحد نقادنا ، قال عنه إنه خرج على قواعد النوق حين قضت عليه الظروف أن يزهى بشعره ويختال^(١) :

وقضت عراقاة الأصول وشرف النسب الهاشمى على الشريف الرضى أن
يفتخر - حين يفتخر - بمجديه محمد عليه السلام ، وعلى بن أبى طالب ، فراه يقول :

أعد لفخرى فى المقام محمدا وأدعو عليا للعلا حين أركب
أو يقول فى قصيدة أخرى :
المجد يعلم أن المجد من أربى ولو تهاديت فى غى وفى لعب
إلى لمن معشر إن جمّعوا لعلا تضرّفوا عن نبي ، أو وصى نبي
أو يقول فى ثالثة :

أنا ابن نبي الله وابن وصيّه فحارّ علا عن نده وضريبه
فهو يجمع بين النبي وابن أبى طالب فى فخره . وقد يُفرد ، كقوله فى جده

« على » قسم النار^(١) :

قسم النار جَدَّى يوم يُلقى به باب النجاة من العذاب
وقد يفتخر بآبائه جميعاً دون تخصيص ، فيقول :

أنا ابن السابقين إلى المعالي إذا الأمد الطويل ثنى البطاء
إذا ركبوا تضايقت الفياق وعطل بعض جمعهم الفضاء...
وتارة يشير إلى أن آباءه هم بنو هاشم ، فيقول :

أنا ابن الأناجب من هاشم إذا لم يكن نجبٌ من نجبٍ
وطالما افتخر الشريف الرضى بنفسه وشجاعته ، كقوله ملتصقاً لنفسه العذر
من معاكسة الأيام :

ولولا صولة الأيام دوني هجمت على العلا من كل باب
ومن شيم الفتى العربى فينا عناق البيض والخيال العراب
أو افتخر بهمته ومضاء عزمه ، كقوله :

وما كُنت أجري إلى غاية فأسألها أين وجه الإياب
إذا استنهضت همى عزمة عصفتُ بأيدي المطى العراب

٤ - شاعر الحكمة والمثل

اشتهر المتنبي بالحكمة والمثل وسيرورتهما في شعره ، ولعل اشتغال الدنيا به
وبنقد شعره والموازاة بينه وبين غيره قد فسح المجال لاشتهار أمثاله . ويزدحم
ديوان الشريف الرضى بكثير من الحكم والأمثال ، وإن كان الحظ لم يرزقها
من الذبوع والانتشار ما رزق أمثال المتنبي . وعلى الرغم مما قاله بعض المقيدين
لعبقرية الشريف من أن حكمه أقرب إلى الطبع من حكم المتنبي التي كان

(١) قسم النار : هي تسمية للإمام على مأخوذة من قوله عن نفسه : (أنا قسم النار) .

يتعمدها قصداً — على الرغم من ذلك فإن حكم الرضى لم تدر فى مجال الزمان مدار حكم غيره من الشعراء . ولعل الاهتمام الحادث فى زماننا بشعر الرضى وسيرته ، يتيح لأمثاله أن تنتشر على أوسع المقاييس ، ويخرجها عن نطاق الحبس الذى تعانیه فى ديوانه . . ذلك الديوان الذى لم يقدر لطبعته المحققة على يد الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد أن يظهر منها إلا جزء واحد بلغ قافية الباء .

وقد تتكاثر الحكم والأمثال عند الشريف الرضى فى قصيدة واحدة ، فتزدهم بها ، كما فى تعزيتة لبهاء الدولة بن بويه عن ولده أبى منصور ، التى مطلعها :

كان قضاء الإله مكتوباً لولاك كان العزاء مغلوباً

وكما فى تعزيتة الخليفة عن عمر بن إسحاق بن المقتدر ، وهى قصيدة لامية مشحونة بالحكم والأمثال يقول فيها :

ومن نظر الدنيا بعين حقيقة درى أن ظلاً لم يزل سيزول
إذا لم يكن عقل الفتى عون صبره فليس إلى حسن العزاء سبيل
ومن مات لم يعلم — وقد عانق الثرى — بكاه خليل أم سلاه خليل
وكما فى مدحته للطائع التى يقول فيها :

وما صاحبك الأدنون إلا أباعد إذا قلّ مال أو نبت بك حال
ومن لى بخل أرتضيه وليت لى يميناً يعاطيها الوفاء شحال
إذا عزنى ماء وفى القلب غلة رجعت وصبرى للغليل بلال
أرى كل زاد ما خلا سدّ جوعة ترائباً ، وكل الماء عندى آل
نخف على ظهر الثرى ويطونه علينا إذا حل الممات ثقال
وما نوب الأيام إلا أسمنة تهاوى إلى أعمارنا ونصال

ومن حكم الشريف الرضى المتناثرة :

تملى المقادير أعماراً وتنسخها ويضرب الدهر أياماً بأيام
قد يبلغ الرجل الجبان بماله ما ليس يبلغه الشجاع المعدم
ما الذنب للمزن جازتني مواطره وإنما الذنب للأرزاق والقسم
سألني عن العيش أنا لاندوم له وهو الموت ما نلتني من العلل
ولا تزرعوا شوك القتاد ، فإنكم جديرون أن تدموا به وتُشاكوا
وما جمعى الأموال إلا غنيمة لن عاش بعدى واتهام لرازق
والسيف إن مر على هامة روّعها إن هو لم يقطع
وكيف وفور العرض والمال وافر ومن يخزن الأموال يُنفق من العرض
لو كان حفظ. النفس ينفعنا كان الطبيب أحق بالعمر
وكيف يتم في بلد صلاة وكل بقاعه قِبَلُ القصور ؟
نالوا على قدر الرجاء ... وإنما يروى على قدر الأوام الصادى
إذا قلّ مالى قلّ صحبى ، وإن نما فلى من جميع الناس أهل ومرحب
وخلائق الدنيا خلائق مومس للمنع آونة وللإعطاء . . .
لا تجعلن دليل المرء صورته كم مخبر سمج عن منظر حسن
هم نقلوا عنى الذى لم أفه به وما آفة الأخبار إلا رواها

٥ - شاعر الدموع

يحس المنتبع شعر الشريف في ديوانه أنه أمام شاعر كثير البكاء على
الراحلين ، كثير التعزية لأصدقائه وأقاربه ممن فقدوا أحبابهم . وكثيراً ما تصادفنا
عنده أمثال هذه العبارات : وقال يرثى فلاناً ، أو : وقال يرثى بعض إخوانه

ولا يُذكر الاسم، أو: وقال يعزى فلاناً، أو: وقال يعزى صديقاً له عن ولده - دون ذكر اسم الصديق - .

ولقد لفتت كثرة مرأى الشريف وامتلاؤها بالعاطفة نظر الذين أُرخوا له ،
فالتعالي يقول عنه : (ولست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المراثي
منه) . وابن أبي الحديد يقول عنه : (وإن قصد في المراثي جاء سابقاً والشعراء
منقطع أنفاسها على أثره) ، ويسميه زكى مبارك (الفنى البكاء) ، ويعقد
الدكتور إحسان عباس فصلاً عنه بعنوان (النائحة الثكلى) .

ولقد كان الشريف غرضاً لسهام الزمان ومحاربة الأيام ومعاكسة الظروف ،
وهو دائم الحزن والألم بما فعلته الأيام في بيته - أعنى بيت الطالبين - وفي أبيه
حين صودر وحبس ، وفي آماله حين تحطمت ، ولهذا وجد في الرثاء متنفساً
لأحزانه وإخفاقه في الحياة ؛ يضاف إلى هذا وفاؤه لمن يرثيهم وتحسره على
فقدهم .

ولقد وجد الشريف في مأساة الشهيد الحسين بن علي عليه السلام منفرجاً
آخر لهوموه ، وتعبيراً عن آلام الشيعة ، فنهج في مراثيه للحسين منهجاً جديداً
بالافتخار بأهل البيت وذكر قبورهم والتشوق إليها .

وتدور المعاني التي ينظمها الشريف في سلك مراثيه، حول الحياة وغرورها،
وازدحام القبور بالموتى ، وملاقاة رميم الأواخر للأوائل :

قبر على قبر لنا وأواخر يلتقى رميم الأولين رميمها
ومشيئنا في الحياة إلى آجالنا :

نخطو وما خطونا إلا إلى الأجل وننقضى وكأن العمر لم يطل

وعدم الجدوى من شكوى زمان نحن رهائن في يده :

ولا تشك^(١) زمانا أنت في يده رهن فما لك بالأقدار من قبل

(١) أصلها ولا تشك بتأمين حذفت إحداهما تخفيفاً : أى لا تظهر الشكوى .

وزراه في أغلب مراثيه يتمنى لو يقبل الموت فداء فيفدى مراثيه ، أو لو يدفع الموت بقوة فيدفعه :

لو لوى عنك رائح الخطب ذب أو رمت دونك الحمام يدان
لو قتلت الردى نفس عزيزا ت وأيد مملوءة بطعان !
ويقول في أمه :

ما كنت أذخر في فداك رغبة لو كان يرجع ميت بفداء
وتزداد مراثى الشريف حرارة وحزنًا عميقًا وألمًا ممضًا على قدر علاقته من
الميت والتصاقه بمودته وصداقته ، وهنا يعد لنا مآثر الفقيد وصفاته . ومن مراثيه
الحارة قصائده في رثاء أبي طاهر بن ناصر الدواة الحمداني ، وبهاء الدولة
البويهى ، وأمه الشريفة فاطمة ، والصابى ، والخليفة الطائع . ولم يكن الشريف
يقنع في رثاء بعض من يحبهم بقصيدة واحدة - كما جرى العرف بين الشعراء -
ولكنه يظل يفيض ماء عينيه على المراثى في أكثر من قصيدة كما فعل في رثاء
الصابى ، والطائع وغيرهما . . .

ولم يكن الشريف يلتصق الشهرة من ثناء الرجال المرموقين البارزين ، بل
كان يرثى حتى المغمورين من أصدقائه ممن لم يشغلوا مناصب هامة ، أو يتسمنوا
مراكز عامة ، وما بعد ذلك وفاء للرجال .

٦ - غزليات الشريف وحجازياته

يقول ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة في غزليات الشريف إنه (إن قصد
الروقة في السيب أتى بالعجب العجاب . . .) . ويقول عنه البخارى صاحب
« دمية القصر » : (وإذا نسب انتسب رقة الهواء إلى نسيبه ، وفاز بالقدح المعلى
في نصيبه . . .) .

وإذا كان شعراء المواسم في الحجاز قد سجلوا لنا في العصر الأموى شعراً
غزلياً ظل يتناشده الركبان والرواة زماناً ، فإن القرن الرابع الذى عاش فيه الشريف

قد سجل لنا شعر ألهذا الشاعر كان النسيب الحجازى باعنه .

ولقد أتاحت الظروف التى أحاطت بالشريف أن يخرج إلى الحج أميراً لحجاج المسلمين ، وهى إمارة كان يتقلدها والده بالأصالة ، وتقلدها هو كذلك . وفى هذه المواسم كانت تقع عين الشريف الرضى على الجمال البدوى غير المحلوب كجمال الحضارة . وكان قلبه يستجيب لهذا الجمال فيقف مبهوراً أمامه ، ولا يجد من وسيلة إلا إرسال الشعر فيه .

ولم يستطع الرضى أن يقول فى حجازياته كل شيء ، كما لم يستطع أن يفعل فى سائر شعر الغزل والنسيب عنده . فشرفه ومكانه من أهل البيت ومركزه الدينى وتولية نقابة الطالبين كانت من معوقات الانطلاق فى الغزل عنده . فهو يتغزل ، ولكن فى تصون ، وينسب ، ولكن فى وقار . وقد تغلب الغزل عليه فى مقامات ليس فيها للغزل مجال . ففراه يتغزل فى بعض مدائحه لبهاء الدولة ابن بويه . ولعله هنا مقلد للقديس سالك طرائقهم ، ولكن كلامه يكشف عن آثار حب ، وغزوات قلب .

وطوراً نراه ينسب فى مواضع الفخر ، كقوله :

يا دار ما طربت إليك النوق	إلا وربك شائق ومشوق
جاءتك تمرح فى الأزمّة والبرى	والزجر ورد ، والسياط علق
وتحن ما جدّ المسير كأنما	كل البلاد محجر وعقيق
دار تملكها القراق ، فرقها	بالمحل من أسر الغمام طليق
شرقت بأدمعها المطى كأنما	فيها حنين اليعملات شهيق
الآن أقبل بى الوقار عن الصبا	فغضضت طرفى والظباء تروق
ولو اننى لم أعط مجدى حقه	أنكرت طعم العز حين أذوق
رمت المعالى فامتنعن ولم يزل	أبدأ يمانع عاشقا معشوق ...

ويحاول الشريف فى غزلياته أن يصور لنا قهوه لشهوات النفس على ما بها

من لواجع العشق . فقد تضاجعه الحسناء والسيف دونها ، ولكن السيف أدنى الضجيعين إليه ؟ ! وما أبرع هذه الكناية عن العفة التي تصورها هذه الأبيات :

تضاجعني الحسناء والسيف دونها ضجيعان لي ، والسيف أدناهما مني
إذا دنت البيضاء مني لحاجة أبي الأبيض الماضي فأبعدتها عني
وإن نام لي في الجفن إنسان ناظر تيقظ . عني ناظر لي في الجفن^(١)

لقد كان الشريف الرضي في صراع بين العقل والقلب ، وبين المجد والحب . وكان إنساناً يحب ويعشق ويصبو إلى الجمال في عفاف ، قبل أن يكون تقيماً للأشراف أو أميراً للحج . . .

والحق أن قلب الشريف الرضي كان من تلك القلوب الرقيقة الحساسة التي تلتفت بالعيون إلى الحب مقبلة عليه ، ثم تلتفت حين تغيب عنها شخوص الأحباب أو طولهم . . . وما أصدق تعبيره الرائع عن ذلك بقوله :

ولقد مررت على ديارهمو وطلولها بيد البلى نهبُ
فوقفت حتى ضج من لغب نضوى ، ولجَّ بعلى الركب
وتلفتت عيني ، فعدت خفيت عني الطاول تلتفت القلب !!

٧ - آخذ ومأخوذ منه . . .

ظهر الشريف الرضي بعد موت المتنبي بعقد أو عقدين من السنين ، وإذا شئنا الدقة قلنا إن الشريف ولد بعد وفاة أبي الطيب بخمس سنين . وكان اسم المتنبي في طفلة الشريف ويفوعته وشبابه يملأ الدنيا ويشغل الناس . وكان

(١) الجفن : الأول هي جفن العين ، والثانية هي ضد السيف .

شعر المتنبي يحفظه الناس وينشدونه ، ويمجدون فيه المثل الحديد لفحولة الشعر العربي في القرن الرابع . ولقد حفظ الشريف شعر المتنبي ونفذ إلى أعماقه وعرف ظروف نظمها كلها ، لم يخف عليه شيء منها . وأحب الرضى المتنبي وأحب شعره ، وأعجب بشجاعته وروحه التي تمثل فيها روح « الفتي العربي » .

وتلفت نظرنا ظاهرة خاصة في تقدير الشريف لشعر نفسه ، هي وتطاوله بالشاعرية على من سبقه من الشعراء . فقد رأى في تقدير نفسه أنه لولا الحياء لأزرت فصاحته بالبحترى ومسلم بن الوليد :

وفصاحة لولا الحياء لهجنت أعلام ما قال الوليد ومسلم

ورأى أنه مواز للفرزدق وجريير في الشاعرية حيث يقول في وصف شعره :

وقصيدة عذراء مثل تألق الروض النضير

فرحت بمالك رقهها فرح الخميطة بالغدير

وكانه في رصفها جار الفرزدق أو جريير

ورأى نفسه موازياً لزهير بن أبي سلمى مرة ، وأعلى منه مرة أخرى . ورأى نفسه فوق الشعراء جميعاً بدون تخصيص بذكر أسماء ، ولكنه لم يجرؤ مرة واحدة أن يقيس نفسه بالمتنبي أو يلز نفسه معه في قتران . . . فهو يتهيب ذلك الرجل الذي أثر في روحه كلها أثراً لا تكاد تخطئه وأنت تقرأ شعر الشريف ، فتقول : هذه روح المتنبي منبثة في هذا الشعر للشريف .

وقد استطاع الشريف أن يأخذ شيئاً من معاني أبي الطيب الأصيل الحياذ ، ويتصرف فيها تصرفاً بارعاً خفياً لا تهتدى إليه إلا العين البصيرة بالنفد والموازنة .

ولسنا هنا بصدد إحصاء المعاني التي أخذها الشريف من المتنبي وتصرف فيها بما ينبت تهمة السرقة الشعرية . ولا نستطيع أن نقول إنه من باب (وقوع الحافر على الحافر) ، أو من قبيل (المعاني لى في الطريق) . فإن القارئ

الواعي يدرك أن الشريف كان يضع المتنبي دائماً أمام عينيه وهو ينظم . . .
 • ورب قارئ يستعظم قولنا هذا على الشريف الرضى . ولكننا نقول إن الشريف
 لم يستطع أن يمنع نفسه من أخذ معاني أبي الطيب وتلففها ببراعة ، بل أخذ
 يستعير منه بعض عباراته الخاصة به ، فإذا قال المتنبي لممدوحه :

أزل حسد الحساد عنى بكبشهم فأننت الذى صيرتهم لى حسدا
 قال الشريف لممدوحه :

أزل طمع الأعداء عنى بفتكة فلا سلم إلا أن يطول قتال
 وإذا قال المتنبي فى ممدوحه سيف الدولة : « على شروب للجيش أكل » ،
 قال الشريف :

نؤمل أن نروى من العيش ، والردى شروب لأعمار الرجال أكل
 فسيف الدولة شروب للجيش أكل . والردى شروب لأعمار الرجال
 أكل . فالشريف مولع بمحاكاة استعارة المتنبي ومسلكه فى التعبير . . .
 وإذا قال المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم
 رأينا الشريف يقول :

ينال الفتى من دهره قدر نفسه وتأتى على قدر الرجال المكابد
 وإذا كان المعنى هنا فيه مغايرة ، فإن مسلك التعبير وطريقة الأداء تكاد
 تكون واحدة فى الشطر الثانى من كل بيت . . .

ومن المعانى التى أخذها الشريف من المتنبي أو كان ناظراً إليه فيها قوله :
 ما مقامى على الجداول أرجو ها لنيل وقد رأيت البحارا ؟
 أليس الشريف كان متمثلاً فى هذا قول المتنبي :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

ونلاحظ أن الشريف لم تتسلل إليه بعض أساليب المتنبي وحده في شعره ،
ولكننا نرى في بعض شعره أساليب خاصة ببعض الشعراء تتسلل إليه منهم . . .
فقول الشريف يصف قصائده وهو يمدح أحد وزراء بهاء الدولة البويهى :

وعندى للأعداء فيك أوابد لعب الأفاعى القاتلات لعبها
مأخوذ شطره الثانى من قول أبى تمام فى وصف « القلم » : قلم محمد بن
عبد الملك الزيات :

لعب الأفاعى القاتلات لعبها وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل^(١)
وقول الشريف :

إذا لم أنل من بلدة ما أريده فما سرفى أن البلاد رحاب
مأخوذ شطره الأول من قول أبى فراس الحمدانى فى سيف الدولة :
إذا لم أجد فى بلدة ما أريده فعندى لأخرى عزمة وركاب
ونلاحظ هنا المحاكاة حتى فى الوزن والقافية ! !
وقول الشريف فى الوعيد :

والليث لا يخرج إلا مخرجاً من الأجم
مأخوذ من قول أبى تمام :

أخرجتموه بكره عن سجيته والنار قد تنتضى من ناضر السلم
أوطأتموه على جمر العقوق ولو لم يخرج الليث لم يخرج من الأجم
وقول الشريف فى مراثيه للشهيد الحسين عليه السلام :

يا قتيلاً قوض الدهر به عمد الدين وأعلام الهدى^(٢)

(١) الأرى : العمل . واشتارته : جمعته .

(٢) هذا البيت من قصيدة للشريف مطلعها :

كربلا ! لا زلت كربا وبلا ما لى عندك آل المصطفى

وقى نسبها الشريف كلام أثير ، وقيل إنها ليست له .

مأخوذ شطره الأول من قول جليلة بنت مرة تبكي زوجها «كليباً» :

يا قتيلاً قوض الدهر به سقف بيتي جميعاً من علي

وليس يعيب الشريف أنه استحسن بعض معاني غيره فتصرف بها ببراعة، أو أنه تأثر ببعض عبارات غيره من الشعراء . ولقد كان هو نفسه غرضاً أخذ منه الشعراء بعده . فقد كان شاعراً شوقى ينظر إليه ويضعه نصب عينه في قصيدته التي رثى بها الطيارين العثمانيين : فتحى ونورى والتي مطلعها :

انظر إلى الأقمار كيف تزول وإلى وجوه السعد كيف تحول !

فهذا التعبير الخاص بما فيه من أمر واستفهام أخذه شوقى من مطلع قصيدة الشريف التي يهتئ بها أباه بعد أن ردت إليه أعماله :

انظر إلى الأيام كيف تعود وإلى المعالي الغر كيف تزيد

واستجاد شاعرنا محمود سامى البارودى استعارة الشريف وكنايته عن الزمارة أو الناي « باليراع المثقب » ، فأخذها منه في قوله يفتخر :

وما أنا ممن تأسر الخمر لبه وعلك سمعيه اليراع المثقب
وأصله من قول الشريف يفتخر أيضاً :

كأن تراجع الحداة وراةها صغير تعاطاه اليراع المثقب

وجمع صاحب كتاب « مهيّار الديلمى وشعره »^(١) طائفة مما أخذه مهيّار من معاني الشريف الرضى أستاذه ، وفاته أن يشير إلى بيت مهيّار الديلمى :

عمّموا بالشمس هاماتهم ومشوا فوق رؤوس الحقب

فهو ملحوظ فيه قول الشريف يفتخر بأبائه الهاشميين :

ثلاث برودهم بالرماح وتلوى عماثم بالشهب

(١) مؤلفه الأستاذ عل عل الفلال طبع دار الفكر العربى .

٨ - دور الشريف في تطور دراسة البيان

لشريف الرضى كتابان أحدهما في « المجازات النبوية » وثانيهما في مجازات القرآن عنوانه : « تلخيص البيان في مجازات القرآن » كان لنا حظ تحقيقه والتقديم له بدراسة تحليلية طويلة^(١).

ولقد وجد الشريف نفسه أمام مصدرين من مصادر البلاغة العربية ، أولهما معجز للعرب على فصاحتهم ، بل معجز للإنس والجن ، ولو اجتمعوا معاً على أن يأتوا بسورة من مثله . وهو القرآن الكريم الذي أنزل على محمد . وثانيهما فيه من معجزات البلاغة والفصاحة وجوامع الكلم ما جعله تالياً لكلام الخالق ، وفوق كلام المخلقين^(٢). فنصب الشريف الرضى مسنون عزمه لخدمة هذين المصدرين المقدسين عند المسلمين والعرب ، وتبعهما تتبع دارس لهما مفتون بهما ، ليكشف عما في كل منهما من جمال التعبير ، وروعة البيان ، وسحر البلاغة ، ولطف المسلك ، ووضوح الحجة ، وإشراق الديباجة ، مما لم يَعهْدُ أن يكون جارياً على سنن العرب في تعبيرهم ، ولكنهم لا يرقون إلى مستواه مهما انقادت لهم أئنة الكلام ، وذلك لهم أزمّة البيان .

والحق أنه لم يظهر قبل كتابي الشريف الرضى كتاب قائم بذاته في مجازات القرآن والحديث ، فإن « مجازات أبي عبيدة » المتوفى سنة ٢٠٩ هـ ، لا يدخل في باب المجاز بمعناه البياني ومدلوله البلاغي المقابل للتحقيق عند علماء البيان ، ولكنه « المجاز » عنده بمعنى التفسير والشرح للكلمات ، فكأنه مجاز إلى فهم المعنى ، سواء أكان هذا المعنى وارداً على سبيل الحقيقة أم المجاز .

وكذلك إشارات الجاحظ وتلميذه ابن قتيبة إلى المجازات والاستعارات بالمعنى الاصطلاحي عند البيانيين لم تكن إلا لمعاً بيانية مثورة في كتب « البيان والتبيين »

(١) نشر دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٥ القاهرة .

(٢) لباب الآداب لأسامة بن منقذ . تحقيق المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر .

و« الحيوان » للجاحظ و « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة ، ولم تأخذ ذلك المنهج القائم الكامل الذى سلكه الشريف الرضى فى كتابه عن مجازات القرآن .

وأما ما صنعه أبو عبيدة فى كتابه « غريب الحديث » وما صنعه أمثال ابن قتيبة ، وابن الأنبارى ، وابن دريد ، والحضرمى ، والسلمى فلم يكن غير تفسير وشرح لغريب ألفاظ الحديث النبوى ، ولم يكن كشفاً عن مجازات الحديث ، ولا تجلية لوجه البيان فيه من ناحية الحقيقة والمجاز ، ومن حيث التصريح والاستعارة .

ومن هنا كان كتابا الشريف الرضى فى مجاز القرآن والحديث أول عمل كامل ، ومنهج متكامل ألف لغرض واحد ، هو متابعة المجازات والاستعارات فى كلام الله ، وفى حديث رسوله سورة سورة ، وآية آية ، وحديثاً حديثاً . وهما يدلان على أن الشريف خطأ أول خطوة فى التأليف العربى للكتابة عن مجازات القرآن والحديث كتابة مستقلة قائمة بذاتها ، لم تأت عرضاً فى خلال كتاب ، أو باباً من أبواب مصنف .

ويكشف الرضى عن استعارات القرآن وحقيقتها بأسلوب يبانى فى مهد الطريق لأسلوب الاصطلاحيين من علماء البيان بعد ذلك . فى قوله تعالى : (يوم يكشف عن ساق) يشرح الشريف الرضى أنه لم يقصد ظاهر الكلام من الكشف عن السوق حقيقة (وإنما المقصود أنه يكشف عن شدة من الأمر أو عن أمر عظيم . وأصل هذا أن الرجل إذا وقع فى أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجلد فيه ، شمر عن ساقه ، فاستعيرت الساق فى موضع الشدة) .

ويجربى الشريف فى إجراء الاستعارات والمجازات القرآنية والنبوية على هذا النسق الذى لم يكن للناس عهد به . والكشف عن بيان القرآن والحديث يتطلب أن يكون الكاشف عنه ذا بيان قوى ، حتى تكون الوسيلة شريفة شرف غايتها . فلا يعقل أن يكشف عن بلاغة القرآن قاصر الباع فى البلاغة ، ضيق الذراع فى الفصاحة . ولذا كان الشريف الرضى أولى من يكشف عن بيان القرآن

والحديث ، فقد رزقه الله من سحر البيان ، وذلاقة اللسان ، ووضوح الحججة ما يقدره على النهوض بالعبء على أحسن الوجوه .

ولقد كان الإمام القرطبي المفسر فقيهاً ، فغلب عليه الفقه والأحكام في تفسيره . وكان الثعلبي إخبارياً فغلبت عليه فطرته في القصص ، وكان الفخر الرازي حكيماً فغلبت عليه الحكمة والفلسفة وهو يفسر كتاب الله . وكذلك كان الشريف الرضي فصيحاً بليغاً ذا بيان ، ونفوذ إلى أعماق الكلام ومرامى السهام ، فغلب ذلك عليه في كتابيه عن مجازات القرآن والحديث .

ومن طريف ما نذكره هنا في معرض المجازات القرآنية أن جمهور المسلمين على أن « المجاز » - المقابل للحقيقة - واقع في القرآن . أما الظاهرية ، وابن القاص من الشافعية ، وابن خويز منداد من المالكية فينكرون وقوع المجاز في القرآن . وشبهتهم أن المجاز غير الحقيقة ، فهو إذن كذب ، والقرآن منزّه عن الكذب ، كما أن المتكلم لا ينصرف عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا ضاقت به الحقيقة ، أو عجز عن التعبير بها فيلجأ إلى التعبير بالاستعارة . وذلك محال على الله تعالى القادر ، المنزه عن العجز .

وقد رد على هذه الشبهة جماعة من المسلمين كان أسبقهم ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، ومن متأخريهم الإمام المفسر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ الذي يقول : (وهذه شبهة باطلة . ولو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسن . فقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ؛ ولو وجب خلوه القرآن من المجاز وجب خلوه من الحذف والتوكيد وتشية القصص وغيرها)^(١) .

فالشريف الرضي كان من جمهور المسلمين الذين رأوا وقوع المجاز في القرآن ، ولم ينكره ، بل ذهب في الكشف عن وجوه كل مذهب ، ثم راح يكشف عنه في الحديث النبوي أيضاً ، فكان بذلك أول رائد في هذا الميدان . وأسلوب الشريف الرضي في الكشف عن مجازات القرآن والحديث

واستعاراتهما أسلوب عال متميز مشرق يفيض بالقوة والفهم وحسن الذوق والتمييز وصحة النقد . وتبدو شخصية الشريف مستقلة متميزة من خلال نقده . فهو يعتد بالرأى متى رأى فيه صحة واستقامة ، ويعدل عما يجانبه الصواب ، أو لا تؤيده شواهد اللغة المحتج بها . ففي بيان قوله تعالى : (خلق الإنسان من عَجَل) ، يقول : (فأما من قال من أصحاب التفسير إن العَجَل ههنا اسم من أسماء الطين ، وأورد عليه شاهدآ من الشعر ، فلا اعتبار بقوله ، ولا الثقات إلى شاهده ، فإنه شعر مولد . . .) والشاهد الذى أورده المفسرون الذين يخالفهم الشريف الرضى فى تفسيرهم هو :

والنبت فى الصخرة الصماء منبته والنخل ينبت بين الماء والعَجَل وفى مجاز قوله تعالى : (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم) ، يقول الشريف : (. . . المعنى أنهم استقروا فى الإيمان ، كاستقرارهم فى الأوطان ؛ وهذا من صميم البلاغة ، ولباب الفصاحة . وقد زاد اللفظ المستعار ههنا معنى الكلام رونقاً . ألا ترى كم بين قولنا : استقروا فى الإيمان ، وبين قولنا : تبوءوا الإيمان ؟ وأنا أقول أبداً : إن الألفاظ خدم للمعاني ، لأنها تعمل فى تحسين معارضها ، وتنميق مطالبها) . ومناداة الشريف الرضى على نفسه بقوله : « وأنا أقول أبداً » يحمل معنى قيامه بقضية البلاغة ، وخدمة الألفاظ للمعاني .

٩ - مؤلفات الشريف الرضى

تضيف المؤلفات التى تركها الشريف الرضى ثروة كبيرة إلى تلك المؤلفات العظيمة التى كانت من نتاج ذلك القرن الرابع الذى عاش فيه المترجم له من أمثال كتب الخوارزمي ، وابن العميد ، وبدیع الزمان ، والصاحب بن عباد ، وبتيمة الدهر للثعالبي ، والصناعتين ، وديوان المعاني لأبى هلال العسكري ، ورسالة الغفران للمعري ، والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدي ، ومحاضرات الأدباء

للأصبهاني ، والخصائص لابن جني ، والتهذيب للأزهري ، ومقاييس اللغة لابن فارس ، والصحاح للجوهري ، والفهرست لابن النديم ، وتجارب الأسم لمسكويه ، وأمالى الشريف المرتضى شقيق شاعرنا ، والموازنة بين الطائيين للآمدي ، ونشوار المحاضرة للتنوخي ، والراضح في اللغة لأبي بكر الزبيدي .

وتحتل مصنفات الشريف الرضى أسمى مكان في بلج هذا البحر الزاخر . ونحن نورد هنا ثبثاً بما استطعنا الاهتداء إليه من كتبه مع تعريف وجيز بكل منها ينبه إليها ، ويدل عليها :

١ - نهج البلاغة ، وهو مما جمعه الشريف الرضى من كلام الإمام على ابن أبي طالب كرم الله وجهه . ولن نطيل القول فيما قيل من أن « نهج » هو من كلام الشريف الرضى نفسه ، وأنه ليس من كلام الإمام على ، فتلك قضية أحسن الدفاع فيها « ابن أبي الحديد » قديماً ، والأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد^(١) حديثاً . وقد ذكر المؤرخ جرجي زيدان^(٢) أن نهج البلاغة هو للشريف المرتضى - لا للشريف الرضى - مع أن الأخبار والآثار متطابقة على أن الكتاب هو للرضى . وقد أخذ زيدان بأوهن القولين في هذه القضية ، ونقل عن صاحب وفيات الأعيان ، ولكنه لم ينتل النص كاملاً ، ولا الكلام تاماً ، فاجتزأ من النقل بما يوهم أن نهج البلاغة للمرتضى ، وعبر عن ذلك بأنه المشهور ، مع أنه قول مرجوح . ولو أنصف جرجي زيدان لقال كما قال ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان : (وقد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام على بن أبي طالب رضى الله عنه ، هل هو جمعه أم جمع أخيه الرضى^(٣)) .

وقد نال نهج البلاغة كثيراً من الاهتمام به ، والتعليق عليه ، وحفظه ، وكثرة الشروح له ، حتى لقد أحصى صديقنا العلامة صاحب « الغدير » خمسة

(١) مقدمة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد لكتاب نهج البلاغة .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

وسبعين شرحاً له^(١)، منها شرح على بن الناصر المعاصر للشريف وهو أول الشروح وأقدمها ، وشرح البيهقي النيسابوي المتوفى سنة ٥٦٥ هـ ، وشرح ابن أبي الحديد المتوفى سنة ٦٥٥ هـ ، وشرح يحيى بن حمزة العلوي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، وشرح الأستاذ محمد حسن نائل المرصفي من أهل زماننا ، وشرح الشيخ محمد عبده .

وللهج شروح بالفارسية منها : « منهاج الولاية » للمولى عبد الباقي الخطاط الصوفي المتوفى سنة ١٠٣٩ هـ

٢ - المجازات النبوية . ويشتمل على وجوه البيان والمجاز والاستعارة في ٣٦١ حديثاً نبوياً . وقد طبع في العراق سنة ١٣٢٤ هـ ، ١٣٢٨ هـ ، ونشر في مصر بتحقيق المرحوم الأستاذ محمود مصطفى المدرس بكلية اللغة العربية .

٣ - تلخيص البيان ، في مجازات القرآن ، وكان مخطوطاً إلى عهد غير بعيد ، وقد نشر السيد محمد المشكاة مخطوطته المصورة على طريقة الفوتوتيب بإيران سنة ١٣٦٩ هـ ، وألحق به فهرس جليلة ضافية ، وكتب له مقدمة في بضع صفحات ، كما كتب له الأستاذ حسين علي محفوظ مقدمة في ثمانى صفحات . وقد ألقى إلى قدر سعيد أن أقوم بتحقيق هذا الكتاب والتقديم له والتعليق عليه ونشره بدار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٥ تمويلاً على نسخة مصورة تفضل بإهدائها إلى صديق العالم الفاضل المرحوم الدكتور أحمد فؤاد الأهواني الأستاذ بجامعة القاهرة سابقاً . ولم تكد تمضى أشهر على طبعتي المحققة حتى ظهرت طبعة جديدة من منشورات مكتبة الخلافة العامة على نفقة الحاج محمد جواد الكاظمي ، مع مقدمة للسيد مكى السيد جاسم ببغداد سنة ١٩٥٥ يقول فيها إن الطبعة الجديدة عن نسخة أتم من التي عولت عليها ، وقد قال ابن خلكان عن هذا الكتاب : إنه جاء نادراً في يابه .

٤ - ديوان شعر الشريف الرضي ، جمعه أبو حكيم الخبزي^(٢) (بفتح

(١) التذير ج ٤ ص ١٦٩ .

(٢) عند جرجي زيدان أنه الخبزي بالياء المثناة التحتية ، وهو تحريف مطبوع .

الخاء المعجمة وسكون الباء الموحدة التحتية) المتوفى سنة ٤٧٦ هـ ، ومن العجائب أن الشيخ عبد الحسين الحلبي في ترجمته للشریف الرضى في مقدمة الجزء الخامس « من حقائق التأويل » ذكر أنه لا يعرف من هو أبو حكيم الخبزي هذا ، ومتى كان وما اسمه ؟ وقد صحح صديقنا العلامة الشيخ عبد الحسين الأميني النجفي هذا ، وأورد للخبزي ترجمة وجيزة في الجزء الرابع من « الغدير » ص ١٧٦ . وقد طبع الديوان في بمباي أولا سنة ١٣٠٦ هـ ، في ٥٤٩ صفحة ، وطبع في بيروت بعد ذلك بعام بشرح الشيخ أحمد عباس الأزهرى ومحمد البابيى في جزأين تبلغ صفحاتهما ٩٨٦ صفحة ، وأعادت دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٦٨ هـ نشر هذا الكتاب محققاً ومشروحاً بقلم الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد ، ولكن لم يظهر منه إلا الجزء الأول في ٤٨٠ صفحة حيث قافية الباء ، ويظهر أن أموراً تحول دون إتمام هذه الطبعة التى بذل فيها محققها الفاضل كثيراً من الجهد .

٥ - خصائص الأئمة . وقد أشار إليه الشریف نفسه في مقدمته لكتاب نهج البلاغة ، وذكر أنه بدأ تأليفه في عنفوان السن وغضاضة الغصن ، وأنه يشتمل على محاسن أخبار الأئمة وجواهر كلامهم ، فلما فرغ من الخصائص التى تخص الإمام علياً كرم الله وجهه ، عاقته عن إتمام الكتاب محاجزات الزمان ، وبمطالات الأيام . والظاهر مما كتبه الشریف الرضى في تلك المقدمة أن خصائص الأئمة لم يتم تأليفه ، وأن نهج البلاغة هو فصل من فصول خصائص الأئمة . ويذكر صاحب الغدير أن عنده منه نسخة ، ويعجب مما قاله الشيخ عبد الحسين الحلبي من أنه توجد في العراق نسخ باسمه ، تشبهه في المنهج ، ولكن لم تصح نسبتها . . .

٦ - حقائق التأويل ، في متشابه التنزيل ، ويشير الرضى إليه كثيراً في المجازات النبوية ، وفي تلخيص البيان في مجازات القرآن ، فيسميه تارة بالكتاب الكبير ، وتارة باسم حقائق التأويل ، وثالثة يسميه : الكتاب الكبير في متشابه القرآن . وقد أسماه النجاشي حقائق التنزيل ، كما أسماه صاحب عمدة

المطالب : كتاب المتشابه في القرآن . وقد نشر من هذا الكتاب جزؤه الخامس ، وهو الذى عثر عليه منه ، مع مقدمة جيدة للشيخ عبد الحسين الحلى .

والكتاب تفسير للقرآن ، فهو غير تلخيص البيان الذى يكشف عن وجوه الاستعارة والمجاز فى كتاب الله . وتظهر شخصية الشريف فى هذا الكتاب قوية كالعهد بها فى تلخيص البيان ، فهو يناقش الآراء ، ويرد على المخالفين فى ثقة وقدرة وبيان .

٧- معانى القرآن . ذكره ابن شهر آشوب فى « المعالم » ، وقال عنه إنه يتعذر وجود مثله . وقال عنه ابن خلكان فى الوفيات « إنه صنف كتاباً فى معانى القرآن الكريم يتعذر وجود مثله ، دل على توسعه فى علم النحو واللغة » . ويتجه بعض المحققين إلى أن هذا الكتاب هو بعينه « حقائق التأويل » .

٨- الحسن من شعر الحسين ، وقد ذكر ذلك فى ديوانه المطبوع ببيروت سنة ١٣٠٧ هـ ، ونقل ذلك المستشرق آدم متر فى كتابه « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » . وقد كان الشريف الرضى صديقاً للحسين^(١) أبى عبد الله ابن الحجاج الشاعر الماجن الظريف المتوفى سنة ٣٩١ ، فاختر من شعره ما طبع بالحسن والجودة والصناعة والرقعة ، ونفى ما لا يليق نشره . وأقصد رثى الرضى صديقه ابن حجاج بمرثية رقيقة ووصفه بأنه كان خفة روح الزمان . وعجيب أن يختار الشريف لهذا الشاعر الماجن ، ولكنه معذور ، فقد كان ابن حجاج - كما يقول عنه الثعالبي - : (تستخف الأدباء أرواح نظمه ، ويحتمل المحتشمون فرط رفته وقذعه) . ولعل الثعالبي كان يقصد بالمحتشمين الشريف الرضى وأضرابه ممن تجلهم أحسابهم وأقدارهم ومناصبهم عن احتمال المجون .

٩- رسائل الشريف الرضى ، وقد جمعها معاصره وصديقه الحميم أبو إسحاق الصابى كما جاء فى الفهرست لابن النديم . وقد ذكره صاحب عمدة

(١) فى يتيمة الدهر اسمه : الحسن . والصواب أنه الحسين ، كما فى ابن خلكان ، والأعلام

المطالب . ويقع في ثلاثة مجلدات وإن كان سرّاً مطويّاً في ضمير الغيب . وأظنه غير (نسخ المكاتبات من النظم والنثر الجارية بين الشريف والصّابي) التي يوجد مخطوطها في مكتبة الأستاذ المرحوم حسن حسني عبد الوهاب .

١٠ - أخبار قضاة بغداد ، وقد ذكره له ابن عنبسة الحسني الداودي المتوفى سنة ٨٢٩ هـ ، ولا نعرف عنه شيئاً ، وذكره صاحب الغدير في ثبت مؤلفاته .

١١ - سيرة والده المتوفى سنة ٤٠٠ هـ ، وقد بدأ به حياته في التأليف سنة ٣٧٩ هـ ، فهو من أول ما صنف ، وكانت سنة حين ألفه عشرين عاماً ، وهو مما ذكره الحسني صاحب « عمدة المطالب » ، في مناقب آل أبي طالب .

وقد ذكرت له بعض المصادر الشيعية كتباً أخرى ، مثل تعليقه على خلاف الفقهاء ، وتعليقه على كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي ، ومختار شعر أبي إسحاق الصّابي ، والزيادات في شعر أبي تمام .

أما كتاب « طيف الخيال » ، فقد ذكر جرجي زيدان أنه مما يندب إلى الشريف الرضي في مكتبة الأسكوريال . والحق أنه لأخيه الشريف المرتضى ، وقد نشر أخيراً في مجموعة « تراثنا » بتحقيق صديقنا الشاعر المحقق الأستاذ حسن كامل الصيرفي .

أما ما ذكره جرجي زيدان أيضاً من أن للشريف الرضي كتاب « انشراح الصدر ، في مختارات من الشعر » ، فهو غير دقيق تمام الدقة ، لأن انشراح الصدر هذا ليس إلا منتخبات من شعر الشريف الرضي ، اختارها بعض الأدباء كما يذكر حاجي خليفة في « كشف الظنون ^(١) » وهو يتحدث عن ديوان الشريف الرضي .